

حقيقة لم يعد سبيل الى تجاهلها : ان هزيمة الايام الستة لم يكن سببها مجرد ضعفنا العسكري ، او اخطاء استراتيجية وتكتيكية ارتكبها قواد جيوشنا ، فان هذا الضعف وهذه الاخطاء نفسها لم تكن سوى الحاصل النهائي لضعف عام عميق شمل كل نواحي كياننا العربي ، المادي والروحي ، السياسي والاجتماعي ، الاقتصادي والفكري والديني والاخلاقي . ومفزى هذا ان ما نحتاجه لتلافي آسار هذه الهزيمة ، والمضي منها الى الانتصار ، ليس مجرد البناء العسكري ، على اهمية هذا ولزومه ، بل هو البناء الحضاري الشامل لكافة اركان حياتنا المعاصرة . وهذا لن يتحقق بمجرد بسذل المحاولات واصدار التشريعات التي تهدف الى اصلاحات جزئية في كل من المجالات المذكورة على حدة ، بل يحتاج الى المواجهة المباشرة للحقيقة الجذرية التي لا مناص من مواجهتها مهما تكن قاسية : وهي ان « الانسان العربي » نفسه ليست حالته الراهنة بالحالة التي تمكنه من الفوز في معترك البقاء الحديث .

لقد كان الخطأ الكبير في تلك الحرب اننا حشدنا المعدات الحربية الحديثة ، من آخر طراز ، وحشدناها بكميات ضخمة ، ثم غرتنا ضخامة كمياتها وحدائط طرازها ، فظننا انها ستحقق النصر او ترهب العدو بنفسها ، ولم نلتفت الى اعداد الافراد الذين سيتولون تحريكها واستعمالها . وهذا الاعداد له ناحيتان ضرورتان لا تفني احدهما عن الاخرى : الاعداد العلمي التكنولوجي ، والاعداد الروحي النفسي . ومن هذا التقصير في الاعداد نجم كل ما نجم من انهزام فاق كل ما كان متصورا . حتى قال احد كبار كتابنا السياسيين « ان ما قام به العرب لهزيمة انفسهم كان اسهامه في النصر الاسرائيلي اكبر من اي جهد قامت به اسرائيل » ( الاستاذ محمد حسنين هيكل ، الاهرام ، ٢٥ - ٤ - ١٩٦٩ ) .

على من تقع مسؤولية تلك الهزيمة ؟ لا احاول ان ابرىء قيادتنا من نصيبها من المسؤولية ، وهي نفسها لم تحاول ذلك . فحين قرر رئيس جمهوريتنا في التاسع من يونيو ١٩٦٧ ان يتنحى عن كل مناصبه ، اعلن انه يتحمل وحده على كفيه مسؤولية كل الاخطاء التي ارتكبت ، ولم يحاول التخلص منها بالقائها على هذا او ذلك من قواد جيشنا المصري ، دعك من ان يوقعها على اي جيش عربي آخر . فلما اعلنت الجماهير الغفيرة - لا في مصر وحدها ، بل في مختلف اركان العروبة - انها مصرة على الاحتفاظ به زعيما لها ، فقد عبرت بهذا عن يقينها بانه برغم كل ما حدث لا يزال اصالح من يقودها من عقابيل النكسة السى مرحلة الثقافة ثم خاتمة النصر .

اذا كانت قيادتنا قد ادت واجبها في الاعتراف وتحمل المسؤولية ، فان علينا ان نترقب بحقيقة ابعده مدى واعمق توغلا : وهي ان وزر تلك الهزيمة يعود علينا كلنا ، نحن العرب ، لا حكاما فحسب بل محكومين ايضا ، لا في قطر واحد بعينه من اقطار العروبة بل في كلها جميعا . المسؤولية الكاملة اذن هي مسؤولية العرب كلهم اجمعين ، ولا سبيل لهم الى التخلص منها بالقائها على فرد بعينه او قطر بعينه . وما داموا يحاولون او يحاول بعضهم هذا التخلص ، وما داموا يتلمسون كبش الفداء الذي ينجيهم من خطيئتهم الجماعية ، فان هذا دليل على انهم لم يعوا بعد تمام الوعي درس تلك الهزيمة الفاجعة ، او ان وجدانهم الوطني لم يرتفع بعد الى مستوى الكارثة الصاعدة . وما داموا كذلك فاني لهم ان يتلافوا عقابيل الهزيمة ، دعك من ان يمضوا منها السى الانتصار الاكيد ؟

اكن ما كنه هذه المسؤولية ؟ هو اننا لم نفهم فهمنا كاملا حقيقة الصراع القائم بيننا وبين اسرائيل ، اما لاننا لم يكن لدينا العمق الفكري الكافي لادراك تلك الحقيقة ، او لاننا لم نكن لدينا الشجاعة الابدسية الكافية لمواجهتها والاعتراف بكل نتائجها اعترافا تام الامانة .

ما حقيقة هذا الصراع اذن ؟ حقيقته انه ليس مجرد صراع سياسي ، ليس مجرد التنافس العادي بين دولتين حول مسألة محددة ، هذا التنافس الذي من المستطاع ان تتم فيه المصالحة او التراضي على حل

# والآن ... الى الثورة الفكرية !

بقلم الدكتور محمد النوهي

(( اني لاشعر ان النكسة لا بد ان تضيق الى تجربتنا عمقا جديدا ، ولا بد ان تدفعنا الى نظرة فاحصة وامينة على عملنا ، على كثير من جوانب عملنا )) .

- الرئيس عبد الناصر في رسالته الى مجلس الامة ، ١٠ يونيو

١٩٦٧

من الساخطين على هذا التجديد العصري ، الراغبين في الارتداد الى المعطيات الدينية والاخلاقية والاجتماعية العتيقة .

ثم يقارن اولئك الدعاة بين اسرائيل وبين جاراتها العربيات فسي هذه الميادين جميعا ، فيتهكمون ما شاء لهم التهكم على آخر هذه وخضوعها لتراث الافطاع وخمودها تحت وطأة الرجعية ورفضها مسابرة المدنية المعاصرة - اللهم الا فسي الغناء التافه والهجرح السطحي . ويتصايحون : امن العدل ان نسمح لهذه الدول الجاهلة المتخلفة بأن تقضي على هذا القبس الوحيد المير في دنيا الشرق الاوسط ؟ هل نقضي بالزوال على دولة هذه حالها وهذه وجهتها لتنتشر دولا لا يزال الحكام في اغلبها يهدرون كرامة الادميين ، ويصرون على اتخاذ العبيد والاحتفاظ بالجوارى والمحظيات في صميم القرن العشرين برغم تكذيبهم الرسمي الذي يعلنونه في المجمع الدولية حين يواجهون بهذا الاتهام ، ويرتكبون في قصورهم من وراء استارهم فظائع الفجور والتحلل والشذوذ ، ويطلقون العنان لتهنكهم في عواصم اوربوا وامريكا ، تهنكا سافرا تشهد عليه الصور الفوتوغرافية التي التقطت لهم في مبادلهم ، والحوادث المسجلة التي لا سبيل الى انكارها ، تهنكا ينفقون فيه باسراف جنوني ما ابتزوه من ثروات شعوبهم الكادحة المحرومة وما احتكروه من موارد الثروة الطبيعية الفنية فسي اراضيهم لا يخشون مخلوقا ولا خالقا ، وان ارتدوا اقنعة النفاق وتسترنا بمسوح الدينس واطالوا اللحي وحملوا المسابح ؟

... الى آخر ما قالوا ويقولون في كل اسبوع في كتبهم وصحفهم ومجلاتهم الحافلة بالصور التوضيحية ، وفسى اذاعتهم اللاسلكية والتلفزيونية ، مستغلين في هذا كله سيطرتهم على وسائل الاعلام فسي امريكا وغيرها من دول الغرب . ويكفهم في هذا المجال ان يركزوا على مثل واحد : وهو ما للمرأة الاسرائيلية من حقوق سياسية واجتماعية تضعها على قدم المساواة مع الرجل وتعطيها كرامتها الانسانية التامة وتمكنها من مشاركة الرجل في بناء المجتمع وحماية الوطن . بينا اغلب هذه الحقوق في اغلب الدول العربية لا تزال مهدورة ، بل في كثير منها ما تزال المرأة ينظر اليها كمجرد اداة خلقت لتنع الرجل البهيمية . ولا باس من ان يحلوا هذا الحديث بصور او لقطات لبعض الاسرائيليات في مجال التعمير الزراعي الراقى الذي يقوم على الآلات الحديثة ، او مجال الانتاج الحربي المتقدم الذي يحتاج الى اتقان تكنولوجي كبير ، نسم يتبعونها بصور ولقطات لنساء عربيات في كدحهن البدائي القاسي ، او من وراء حجابهن الصفيق ...

هذه حجتهم الكبرى . وحين وجهه هيوبرت همفري نائب رئيس امريكا السابق بالحقيقة التي اتضح من ان اسرائيل كانت هي البائدة بالهجوم في حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ، وجد مخلصا سهلا في ان قال : ان اسرائيل هي « شعلة النور » في الشرق الاوسط . وبهذه الحججة لا يزالون يستندون العطف والتأييد من اكثر المفكرين الغربيين .

كيف نستطيع ان نناقشها ؟ ان الوقت الذي تتكامل لدينا فيه الشجاعة الكافية لمواجهة التسليم بمدى ما فيها من صحة ، هو الوقت الذي ننتبه فيه الى حقيقة الصراع القائم بيننا وبينهم . فالحقيقة الدامية هي ان كلامهم ذلك لا يزال ينطبق على جزء عظيم من الوطن العربي . بل باقي هذا الوطن لا يزال امامه شوط بعيد حتى يتم تبرة نفسه من هذه التهم . فحتى في الاقطار التي تحررت من حكامها الاقطاعيين الفاسقين ، واممت مصادر الثروة فيها ، ومضت في التصنيع ، وسارت خطوات في التطبيق العملي للنظام الاشتراكي ، حتى في هذه الاقطار لا يزال اغلب افراد المجتمع يعيدون عن القبول الحقيقي المنتسح للاساس الصحيح للحضارة الحديثة . وهو الاساس الفكري الراسخ ، المبني على التفكير العلمي السليم ، والنظرة الموضوعية النزهة الى حقائق الكون ومشكلات الحياة وشؤون المجتمع ، غير مشوهة بالخرافات والاوهام .

وما ذمنا على هذه الحال فان حجة اسرائيل قائمة وخطرها باق .

وسط ، ومن المستطاع اكثر من ذلك ان تفوز فيه احدى الدولتين بهدفها دون ان يسبب هذا للآخرى ضررا باقيا او يعرض مجرد كيانها للزوال . هذا هو ما يحاول الآن ان يقنعا به بعض الناس ، عن حسن قصد او عن سوء نية ، فيؤكدون لنا ان من الممكن ان نقبل استنهاد اسرائيل ببدءوى انه سيأتي وقت « تناقلم » فيه وتصير مجرد دولة « ليفانتيية » اي احدى دول حوض البحر الابيض المتوسط ، او احدى دول الشرق الاوسط ، تغلبها الصيغة الثقافية والاجتماعية السائدة في هذا الركن من اركان الارض فلا تشكل مصدر خطر على باقياها ، بل يرجح عامل التفوق العددي الضخم لباقي الدول العربية عليها فتصير جزءا ضئيلا لا يؤبه به .

اما حقيقة الصراع فهو انه صراع حضاري شامل ، بين طرازين مختلفين بل متناقضين من المجتمع البشري يقوم كل منهما على عدد من الاوضاع المادية ، والعلاقات الاجتماعية ، والمفاهيم الفكرية ، والقيم المصنوية ، يستحيل ان يوجد بينها تعايش دائم في قلب رقعة واحدة من الارض ، وان وجد بينها تهدان مؤقت . بل لا بد ان يغلب احدهما ، وتكون غلبته ايذانا بانقراض الطراز الآخر انقراضا تاما . ولن تكون الغلبة في هذا الصراع الا لصالحهما للبقاء بمقتضى النواميس الطبيعية الموضوعية والقوانين التاريخية المحايدة .

\*\*\*

لكي نزداد بهذا بصيرة نسال : ما الحججة الكبرى التي تنذر بها اسرائيل للبقاء ، والتي تكسب بها القوة الراجعة للرأي العالمي الى الآن ؟

ليست هذه الحججة - كما لا يزال اكثر كتابنا يصورون - ان اجداد اليهود كانوا يسكنون هذه الارض من آلاف السنين ، وان لهم اذن الحق القانوني في العودة الى وطنهم الاصلي بعدما الحق بهم من التشتت في اركان الارض . فتلك حججة لم يعد مفكر جاد يحفل بها ، ولم تعد تثير سوى السخرية ، واسرائيل نفسها لم تعد تكثر من استعمالها ، لسا فيها - بصرف النظر عن مغالطاتها واخطائها التاريخية - من الخطل الواضح ، فانها لو طبقت في مختلف اقطار الدنيا لادت الى انقلاب سكاني عظيم في الكثير منها ، والى طرد سكان قد رسخوا في البلد منذ قرون ليجل محلهم اناس قد انقطعت صلتهم الفعلية به من زمان بعيد .

اما حجتها التي ملح في تكرارها ، فهي انها القبس الوحيد من نور القرن العشرين في خصم يحيط بها من ظلمات قرون التخلف والانحطاط . انها الدولة الوحيدة في الشرق الاوسط التي تمثل قوى التطور والتقدم والعصرية ، بينا حولها تسود الجهالة والرجعية والتأخر وتخلق بقبضتها انفاس الادميين .

وطالما استعمل دعائها وانصارها هذا السلاح بمهارة ، ونجحوا به في تغطية الاساس الذي قامت عليه من الاعتداء والغدر والذي لا تزال تقوم عليه من اغتصاب الحقوق الطبيعية لسكان البلاد المطرودين . حتى وجدنا هذه الظاهرة العجيبة : انه ما من قضية في العالم لها وجهة القضية الفلسطينية وعدالتها الساطعة ، ومع ذلك يفضي الرأي العالمي نظره عنها ويجد الضمير العالمي امرا سهلا عليه ان يناسي ما تسببه من استنهاد الظلم والمآسي الفظيمة . واذا كانت اعداد مسن المثقفين الغربيين قد بدأوا الآن ينتبهون الى حقيقة ما ارتكبه اسرائيل من الغدر والاعتصاف والى بطلان ادعائها عن رغبتها في السلام والتعايش مع جاراتها ، فان هذا لم يصل بعد الى اقتناع الرأي العالمي وتحريرك الضمير العالمي ، لان حججة اسرائيل لا تزال قائمة ولا يزال دعائها يستغلونها بحذق .

فهم لا يتأثرون بضربون على ذلك الوتر الحساس ، ويلفتون الانظار الى ارتقاء اسرائيل العلمي والفكري والاجتماعي ، ومسايرتها تطورات الفكر الحديث وتشبعها بروحه وتطبيقها الكامل له في تميم صحرائها وتسمية مرافقها وفي انتاج ثقافتها وتطوير فنونها غير موقفة بمخلفات القرون المظلمة ، هذا مع انها لا تخلو هي نفسها من قطاع لا يستهان به

ولا نفرنا في هذا المجال كثرتنا العددية ، فان الكثرة العددية لا مفصول لها في العصر الحديث امام ذلك التفوق الساحق المادي والعلمي والاجتماعي ، ومن الممكن جدا ان تبطل دولة اسرائيل بسكانها الذين لا يزيدون على ثلاثة ملايين كل الدول العربية بسكانها الذين يناهزون مائة مليون .

\*\*\*

اذا انتبهنا الى حقيقة الصراع بيننا وبين اسرائيل ، فان هناك حقيقتين اخريين متصلتين بالنتيجة الحتمية لذلك الصراع لا بد ان نتشجع على مواجهتهما . اولهما ان صراع البقاء لا يجابي ولا يجامل . فالتاريخ المحايد في جريانه وفق قوانينه الموضوعية لا يصانع امه ولا جنسا ، ولا يقيم وزنا لماض مجيد في قراره اي الامم اصلح للبقاء في الظروف الجديدة . وانما ينظر في حاضرها وما هي عليه . ان نستصدر اذن من التاريخ قرارا في مصطلحنا لمجرد اننا عسرب او لمجرد ان لنا ماضيا مجيدا ، فلقد بادت من قبل امم لم تكن اقل عزة قومية مننا ولا اقل حفولا بالامجاد السالفة ، حين قصر حاضرها عن ماضيها ، واكتفت باجتزاز ذكرى مجدها الفابر ، ولم تنتبه الى ان تغير الظروف والاحوال يحتم عليها التطوير ، بما يفرضه من مقتضيات جديدة للمجد القومي تختلف عن مقتضيات اليهود القديمة .

والحقيقة الثانية هي ان مجرد كوننا على حق ان ينفعا . فالتاريخ - كما يقول مثل غربي مشهور - « سجل للحقوق التي ضاعت » ، لان اصحابها لم يتلمسوا الوسائل العملية الكفيلة باحفاقها . وحين التقى سكان امريكا الاصليون من الهنود الحمر بالفاتحين من البيض الاوروبيين لم ينفعم ان الحق حقهم وان الديار ديارهم ، ولا شفع لهم ان هؤلاء الفاتحين كانوا ظاهري الظلم والتعدي والاعتصاب . وليست مواجهتنا مع اسرائيل في صميمها الا نظير تلك المواجهة بين طرازين متناقضين من الاجتماع البشري لا يمكن ان يتعايشا في رفعة واحدة من الارض .

لا سبيل لنا اذن الى الانتصار ، بل لا سبيل لنا الى الاحتفاظ بمجرد البقاء ، الا اذا اقبلنا على ذلك البناء الحضاري الشامل الذي اشرنا اليه ، والذي نريد ان نفضل القول فيه في مقالنا هذا ، بنساء يزبل كل مخلفات القرون المظلمة ، ويتطرق الى كافة اركان حياتنا ، وزوايا تفكيرنا ، ومجموع مفاهيمنا وقيمتنا ، ومتعدد علاقتنا الاجتماعية ، فيمحصها بعملية مطهرة من النقد الذاتي الفاحص الامين ، مهما تكن عملية التظهير هذه قاسية شديدة الايلام .

هذه هي السبيل الواحدة التي لا مجيد لنا من سلوكها ، وحذار من ان نظن اننا نستطيع تجنبها ومع ذلك نحتفظ بالبقاء لمجرد اننا عرب او اننا مسلمون . فان الاسلام لا يقر لاي امة من الامم عربا او غير عسرب باثرة عند الله لمجرد جنسهم . وانما ياخذ الاسلام الامم كما ياخذ الافراد بمقدار صلاحها وطاقاتها لسنة الله التي لن تجد لها تبديلا ولن تجد لها تحويلا . وحذار من ان نمضي في خداع انفسنا بالاستشهاد بآيات من كتابنا المجيد نحرفها عن مواضعها ولا نتم اقتباسها . فحين وعدنا سبحانه وتعالى بالنصر لم يكن هذا وعدا مطلقا بل كان وعدا مشروطا ، فالله لن ينصر الا من ينصره ، ولن يكتب الفوز الا لمن يمدون لعنو الله ومدومهم ما استطاعوا من قوة ، وحين قال جل وعلا اننا خير امة اخرجت للناس فقد شرط هذا بشروط نهمل ذكرها في معظم الاحيان التي نقبس فيها اول الآيه الكريمة فلا نتمها . وحين نعم النظر في هذه الشروط نجد اننا الآن لم نعد خير امة اخرجت للناس . والحقيقة المرة هي اننا لسنا الآن من المباد الصالحين الذين وعدهم الله بان يورثهم الارض . والحقيقة المرة هي ان اسلام معظمنا ليس سوى اسلام اسمي . وكوننا مسلمين اسما لن يفينا قليلا ما دمنا نسمح للرجعية بتحريف رسالة ديننا وابطال روحه ، وما دمنا نسمح لها باتخاذها عقبة في سبيل التقدم ، وتكئة لطامعها ، وحجة لاثرتها وابتزازها ومظالمها ، وستارا لما ترتكب من شنائع الائم والفسوق . ولقد انذر الله الناس جميعا - عربا

وغير عرب - بان لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، وانذرهم اكثر من مرة بانهم ان لم يغيروا احوالهم فانه قدير على ان يذهبهم ويستخلف غيرهم ، وياتي بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز .

\*\*\*

فلنواجهها حقيقة مؤلمة لاذعة الايلام : اننا لم ننتصر في حرب ١٩٦٧ ، كما لم ننتصر قبلها في حرب ١٩٤٨ ، لاننا في كلتا المراتين لم تكن الجاناب الذي هو جدير بالانتصار ، واننا ما دمنا على ما نحن عليه فلن ننتصر في اي حرب تالية ، بل ان مجرد بقائنا معرض لخطر الانهيار . وان سبيلنا الى المحافظة على البقاء والانتهاه الى النصر ، سبيلنا الواحدة التي لا سبيل غيرها ، هي احدات التغيير الجذري الشامل في كل مقومات وجودنا ، المادية والفكرية ، الاقتصادية والاجتماعية ، الروحية والاخلاقية .

هنا قد يسأل سائل : لكن ماذا فعلت حكومة الثورة في مصر في الاعوام الخمسة عشر الكاملة التي توطد فيها حكمها قبل هزيمة ١٩٦٧ ، او لم يعلن ميثاقها الذي صدر قبل تلك الهزيمة بسنوات خمس انها مقلبة على التغيير الجذري الشامل لكمل مقومات حياتنا ؟ اوليست « الجذرية » و « الشمول » هما الصفتين اللتين يوصف بهما التغيير المنشود في اماكن كثيرة في الميثاق ؟ او لم تعلن في ميثاقها هذا انها اتخذت الطريق الثوري ونبذت طريق الاصلاح المتدرج البطيء ؟ او لم تؤكد انها تريد ان تطهر المجتمع مما يسميه الميثاق « الرواسب التعفنفة للنظام القديم » ؟ او لم تعلن انها لا تهدف الى مجرد بناء المصانع ، بل هدفها الكامل هو ان تعيد صنع الانسان العربي نفسه ؟

وهذا يعيدنا مرة اخرى الى مسؤولية القيادة . فلنكرر انه ليس من غرضنا ان نبرئها من كل خطأ ، وهي نفسها لم تحاول هذا قط . لكن اذا كان غرضنا هو النقد البناء لا مجرد الهدم ، واستكشاف الاخطاء لعلاجها لا لمجرد التشفي والشماتة والتشهير ، فان علينا ان نبذل جهدنا لنستكشف الخطأ الاساسي الذي وقعت فيه حكومة الثورة حتى نتلافاه . لقد كتبت عقب الهزيمة كتب متعددة ومقالات كثيرة في تشریح الاخطا . . كان على رأسها في مصر مقالات « بصراحة » التي كشف فيها كاتبنا الثوري الاستاذ محمد حسين هيكل عن كثير من الحفاق التي كانت مخفية ، و اشار اكثر من مرة الى التعارض الذي كثيرا ما نشب بين ما يسميه « مصر الثورة » وما يسميه « مصر الدولة » ، واعطى امثلة متعددة على الضرر الذي اوقفته الثانية بالاولى . لكننا نريد ان نركز هنا على ما نعتقد انه كان الخطأ الاساسي .

وحتى نستكشف هذا « الخطأ الاساسي » لا بد من ان نستعرض استعراضا سريعا المنجزات الكبيرة التي انجزتها حكومة الثورة ، لا تلبية لداعي الانصاف وحده ، بل لان استكشاف الخطأ لن يكون الا بالتأمل في سجل هذه المنجزات لتبين اين كانت الثفرة . كلنا يعلم كيف بدأت الثورة بالقاء الدعائم السياسية التي كان يقوم عليها النظام السابق الفاسد ، حين طردت الملكية الفاسقة ، واقصت الباشوات المفسدين ، وحولت نظام الحكم الى النظام الجمهوري ، وحين الفت الاحزاب البورجوازية والارستقراطية والصور البرلمانية الشكلية التي كانت تتظاهر بالديمقراطية وتخفي تحتها استمرار النظام الاقطاعي الراسمالي العتيق ، وحين الفت القاب البكوية والباشوية واصحاب المقام الرفيع واعلنت تساوي كل المواطنين . ثم تجاوزت هذه الالفاءات فاتخذت خطواتها الايجابية الاولى نحو اعادة تنظيم المجتمع ، وهي تحديد الملكية الزراعية .

في انشاء هذا حققت انجازاتها العسكرية ، فبدأت بتظهير الجيش من عناصر الفساد التي كانت قد تسببت في فضيحة الاسلحة الفاسدة ولم تكن تسمح له بمجال حقيقي للقوة . ثم بدأت في بناء قوانا المسلحة ، وتحرشت بقوى الاحتلال البريطاني وواجهتها حتى تم لها طرد آخر جندي من جنود الاحتلال ، وحققت الاستقلال التام للحكم الوطني في داخل البلاد للمرة الاولى منذ مئات السنين . ثم اتخذت خطواتها

أجربته في كسر احتكار السلاح واللجوء إلى دول المعسكر الاشتراكي لاستمداد ما تحتاج إليه من أسلحة . وتكونت جسد مخطئين اذا سمحنا لهزيمة 1967 ان تنسينا ما حققه هذا كله لمصر اولا ، وللدول العربية جميعا ، من هبة كبيرة ، اذ كانت الثورة قد اكدت شخصية مصر العربية ثم بلغت تلك الهبة ذروتها حين وقفت مصر وفتحتها الصامدة امام قوى العدوان الثلاثي في سنة 1956 ، واستطاعت ان تدحره وتلحق به الخزي الكبير .

اما في الميدان الصناعي والاقتصادي ، فقد بدأت بوضع اسس الانطلاق الصناعي في مصر ، وبدأت التصنيع المخطط . واعادت للعمال الكادحين حقوقهم المسلوبة كما اعادت للفلاحين المستعبدين ارضهم المنهوبة . ثم اصرت على بناء السد العالي حتى حين سحبتم امريكا وعدها بتمويله . وهنا جاء تأميم القنال ، وما تبعه من محاولة الدول الاستعمارية ان تفرض علينا العقوبات الاقتصادية ، حافظا عظيما استقلاله حكومة الثورة ابرع استقلال في القفز بجهود التصنيع والسعي إلى الاكتفاء الذاتي . وبدأت في تحويل وسائل الانتاج إلى ملكية الشعب . ولم تلبث ان اعلنت اتخاذها النظام الاشتراكي اساسا للحكم ، واصدرت قوانين يوليو الاشتراكية في سنة 1961 ، التي قلبت نظامنا الاقتصادي رأسا على عقب ، ومضت في تطبيق تلك القوانين تطبيقا حازما ، وفي ضوء النظام الاشتراكي اعادت تنظيم العلاقات الاجتماعية بين طبقات الشعب ، فوضعت على القمة تحالف قوى الشعب العاملة . وتوجت هذا كله باصدار ميثاق العمل الوطني في سنة 1962 ، وفيه دعمت انطلاقها الاشتراكية وبلورت فلسفتها النظرية . وما نظن مفكرا منصفيا يقرأ هذا الميثاق الا منتهيا إلى انه احكم تعبير عن آمال المجتمع الساعي إلى الاشتراكية في ظروفنا العربية الخاصة . واستمرت بعد اصدار الميثاق في خطواتها في التأميم والتصنيع وفي تنمية عنادنا الحربي .

وليسست هذه سوى المامة سريعة بأهم جوانب انجازاتها . لكن ... لماذا لم تنجح كل هذه الاعمال في تلافي اسباب نقصنا وفي ازالة الرواسب المتعنتة للنظام القديم ، حتى منينا بهزيمتنا القاسية في حرب الايام الستة ؟ اين موضع النقص في هذا كله ؟

موضع النقص ان حكومتنا لم تنتبه انتباها كافي إلى ضرورة الثورة الفكرية التي يجب ان تصاحب كل تلك التغييرات ، برغم ما قيل في الميثاق عن لزوم الثورة الفكرية - ونحن نتحدث الآن عن « مصر الدولة » لا عن « مصر الثورة » - وحين افول انها لم تنتبه « انتباها كافي » فاني اسلم ضمنا بانها انتبهت بعض الانتباه . لكنها في معظم اعمالها اكتفت بالتغيير التشريعي والتنفيذي ، اي بسن القوانين وبذل الجهد في تطبيقها . وسنشرح فيما بعد العائق الاكبر الذي حال بينها وبين احداث الثورة الفكرية اللازمة ، وهو عائق البيروقراطية . لكننا نريد قبل هذا ان نشرح لماذا نعتقد بلزوم الثورة الفكرية .

ذلك ان التغيير الحقيقي للمجتمع لا يتم بازالة حكامه السابقين ، ولا بالفناء القوانين التي كانت تسند نظامهم واصدار قوانين جديدة تسن تمييز الاوضاع ، مهما تكن هذه القوانين الجديدة شاملة ويكن تطبيقها دقيقا حازما . انما يحدث التغيير الحقيقي اذا استطاعت الثورة ان تدخل تغييرا اساسيا على وعي المجتمع نفسه ، بتغيير نظرتة إلى العلاقات الاساسية التي بين الانسان وعالم المادة ، والتي بين الانسان واخيه الانسان . وتمثل هذه النظرة فيما للمجتمع من مفاهيم وقيم . ونحن نعني بالمفاهيم الجانب الفكري ، وبالقيم الجانب الروحي والاخلاقي ، من معتقدات المجتمع وعاداته وممارساته .

تغيير المفاهيم والقيم - هذا هو العمل الذي لا بد ان تفعله كل ثورة ، فان قصرت دونه لم يكتب النجاح لكافه محاولاتها وانجازاتها . والذي يحقق هذا التغيير هو الثورة الجذرية التي يقوم بها مفكرو الشعب ، علماءه وادباؤه وشعراؤه وفنانونه ، فيخضعون للتضييق متعدد آرائه السائدة ونظرياته المقبولة وتقاليد الراسخة وعاداته وممارساته التي اكتسبت بالقدم جلالا وقدااسة ، فينفون عنها ما

يجنون انه لم يعد صالحا للعهد الجديد ، ويحلون محلها ما يؤمنون بان العهد الجديد يستلزمه ، ويقومون بحركة اقتناع عظيمة يقنعون بها الشعب بمختلف وسائل الاقناع التي يحسنونها ، من توير علمي ، وجدل فكري ، وانتاج ادبي وفني . اما مجرد احداث التغيير السياسي والاقتصادي والصناعي بمجرد سن القوانين وتطبيقها فليس كفيلا في ذاته باحداث التغيير الفكري المطلوب .

لماذا تفشل الثورات ان لم تقم بهذه الثورة الفكرية ؟ لان الشعب يظل قاصرا عن اكتساب الوعي الثوري الصحيح وعن الاقتناع المخلص بلزوم التغيير . فيظل يمانع هذا الزحف ويعارضه بمختلف انواع مهما يسق اليه ، ويظل يمانع هذا الزحف ويعارضه بمختلف انواع المعارضات الايجابية والسلبية مهما يكن من وطاة القوانين الجديدة ، حتى يصل إلى ايقافه وشله ثم القضاء عليه والارتداد إلى اوضاع توافق عقلية القديمة . فليست من ثورة في التاريخ تستطيع ان تنجح ان لم تنجح في اجتذاب الشعب اليها واقناعه اقناعا عميقا بضرورتها له وحاجته اليها . ومهما يكن من حماسة القائمين بها ومن عزيمتهم وتصميمهم فمصيهم المحتوم هو الانهزام امام جمود الشعب وزوفه عن التغيير . بل هؤلاء الحكام الثوريون سيخضعون ان عاجلا وان اجلا لفتور الشعب وتخاذله ، فلا يزيد شأنهم في النهاية عن اولئك الغامرين الانتهازيين الذين لم يقوموا بثورات حقيقية بل قاموا بانقلابات دافعا مجرد شهوة الحكم فلم يحاولوا ان يعالجوا الداء من اساسه . يخضعون هم ايضا لنفس العلل والظروف التي وقع تحت سلطانها من سبقهم من حكام العهد البائد الذين اقصوهم عن الحكم ، وينهزمون هم ايضا امام نفس قوى الشر والفساد التي تلوث بها من سبقوهم لانهم لم يحاولوا ان يجتثوها من جنورها . ولعلمهم يعززون انفسهم ويلتصمون المعاذير بانهم قد بذلوا كل ما في وسعهم وان المجتمع الجامد هو الذي يرفض التطوير والتغيير وهو الذي يخذلهم فليس امامهم سوى ان يفعلوا ما يمكن فعله ويرضوا بالتقصير المحتوم . وهكذا يبدؤون بما يعتقدون انه « واقعية » حكيمة ويصيرون إلى تشاؤم كلبى مرير يملأ نفوسهم بالحقد والفتوط .



والان ، دعنا نواجه بأقصى صراحة وامانة نستطيعهما واقع الحال في بلادنا . ما الذي تحقق بعد كل تلك التغييرات السياسية والعسكرية والصناعية والاقتصادية التي فرضتها ثورتنا في مصر ؟ هل صحبها تغيير مفهومي جذري في عقول اكثر الناس وتغيير قيمى عميق في قلوب اكثرهم ؟ تغيير لا يقتصر على التسليم الشفوي والطاعة الفانونية بل يتجاوزة إلى الاقتناع الفكري الحقيقي والايان الروحي العميق فتظهر آثاره في موقفهم العاطفي المشحون وموقفهم النفساني المتغفل ؟

ان الجواب هو بالنفي للأسف الشديد . فان اكثرنا لا يزالون مرتبطين في صميمهم بطائفة من المفاهيم والقيم المتخلفة عن النظام الاقصادي الراسمالي الذي عاشوا وعاشوا آباؤهم واجدادهم تحته فرونا طوالا . ولا يزالون يتشبثون بتلك الرابطة العاطفية والنفسانية التقليدية القوية برغم ما تحملهم عليه القوانين والتنظيمات الجديدة من معاملات وممارسات اشتراكية . وما داموا هكذا فهم لم يقبلوا الثورة بعد فبولا عقليا مقتنعا وقلبيا متفلا . ومفزي هذا بصريح العبارة ان الثورة لم تتوطد بعد في نفوس هؤلاء الناس . فاذا زدنا من مصارحتنا اضطررنا ان نسلم بهذه الحقيقة المؤلمة : ان معظم الناس في بلادنا لم يقبلوا الاشتراكية بعد ذلك القبول الذي حددناه . ولا يزال موقفهم منها موقف العدا المكثوم ، او موقف التوجس الكبير ، او موقف السخرية والتندر والتشاؤم السام . ولا يفرنا كثرة استعمال هؤلاء اللفظ الاشتراكية في كل مناسبة وبدون مناسبة ، وكثرة التشديق بها واجترار اسمها في كل المجالات والقرارات والاعلانات . بل ان هذا التشديق نفسه خليق بان يرينا ، من المتجر الذي اعلن انه قد صنع الحذاء الاشتراكي ، إلى الدكان الذي علق على بابه هذا الاعلان :

طبيقتا للاشتراكية الصميمة قرر المحل تخفيض ثمن كيلو الفسيخ من كذا الى كذا قرشا ..

والكثرة الخيفة لحوادث الخيانات والاختلاسات والانحرافات الخطيرة في الشركات والمؤسسات المؤممة والجمعيات التعاونية الزراعية والاستهلاكية تشهد بصحة دعوانا . وما نظننا على اي حال بحاجة الى الاطالة في اثبات دعوانا لكل من يعلم حقيقة الاحوال ويمتلك الامانة الكافية للتسليم بها . اما من يحجبه عنها الجهل او يمنعه من الافرار بها الجبن او المصانعة والنفاق فلا فائدة في ان نحاول افناعه . ولكن دعنا نسال : لماذا لم يقبل معظم الناس الاشتراكية بعد ، على رغم كل ما كتب من مقالات بلغت المئات وكتب بلغت العشرات في شرحها وتوضيحها واتباها والدعاية لها ، مما تحفل به (( المكتبة الاشتراكية ))؟

السبب هو ان قبول الاشتراكية ليس مجرد اتباع مذهب اقتصادي معين، نستنه حقائق اقتصادية خالصة من الممكن البرهنة عليها ، بل الاشتراكية الصحيحة تحتاج الى دعوة متعددة الجوانب ، تشمل مسائل الدين والروح والاخلاق والفن . لان الاشتراكية الصحيحة تنسب تقييرا عميقا في موقف الفرد الانساني من الحياة كلها ، ومن علاقته بعالم المادة وعلاقته باخوانه في البشرية . هذا التغيير لا بد ان يتناول فهم الفرد للدين نفسه ودوره في المجتمع البشري وما هو داخل فيه وما هو خارج عن نطاقه ، حتى لا تحرف رسالته ولا يستغل في غير ما انزل له . وفهمه للعلاقة الصحيحة القائمة بينه وبين حقائق المادة وفوائدها التي لا يمكنه ان ينخلص منها مهما يتسام بروحانيته ، وان امكنه ان يصرها فيما يريد اذا اتخذ تلك الوسائل المادية الصحيحة حتى لا يتسوه فهمه لها ضياب الخرافات والاهوام فيؤذي نفسه ابلغ ايداء . ولا بد ان يتناول فهمه للتقاليد ومحلها الصحيح في كينونة الامة حتى يدرك ما يستحق منها ان يبقى وما يجب ان يزال . وفهمه للاخلاق واساسها ومنبعها ومعاييرها الذي يحدد ما هو فضيله وما هو رذيلة ، حتى يدرك حاجتها الى التبديل والتغيير بتغير الأوضاع والاحوال . وفهمه لتراثه القومي كله وتاريخه القومي كله وكيف يجب ان ينظر اليهما ، لكي لا يتوهم انهما خير محض روائع مجيدة ، وحتى يميز ما يستحق منهما الحفاظ والاعتزاز وما يحتاج منهما الى الالفاء والتطهير . وفهمه للوطنية الصحيحة والقومية النافعة الحكيمة وما نوجبنا عليه من واجبات حتى يدرك تغير مفهوم الوطنية والقومية في العصر الحديث ومدى تلك الواجبات وحدودها . وفهمه للفن ووظيفته الصحيحة في الحياة الإنسانية ، حتى يدرك حاجة الفن الى تغيير اشكاله ومضاربه بتغير الأوضاع ، والعلاقة السليمة فيه بين التعبير الفردي والتعبير الجماعي .

وبهذا كله يزداد فهما لنفسه هو ، مركزه في الوجود وعلاقته بالوطن ودوره في المجتمع وشيخته بالانسانية الشاملة .

اذا فهما الاشتراكية هذا الفهم - وهو وحده الصحيح - ادركنا طبيعة الثورة الفكرية التي تحتاج اليها ، ومدى بعقد هذه الثورة وتعدد جوانبها . وادركنا انها تستلزم صراعا فكريا وعاطفيا مريبا حتى تتم عملية التطهير التي لا مفر منها ، ومدى ما سيكون في هذه العملية من الحدة والايلام . لكنها لا مفر منها ان اردنا لنظامنا الثوري تمام النجاح والتوطد ، لانها هي التي ستحدث التغيير المفهومي والقيمي في افراد الشعب ، وستجلبه الى كافة مفاهيم الدينونة والاخلاقية ، الفكرية والعاطفية والتفاسية ، الفردية والاجتماعية والقومية . وبهذا التغيير وحده يستطيعون ان يقبلوا عن ايمان صادق فلسفة النظام الجديد ويرتبطوا بها ارتباطا وثيقا ، ارتباطا عاطفيا فويا ونفسانيا عميقا . لكن ... كيف تتم هذه الثورة الفكرية ، ومن يقوم بها ؟

\*\*\*

حين اقول ان الثورة يجب عليها ان تقدم على الصراع الفكري الذي يستلزمه تغيير المفاهيم والقيم ، فمن اعني بالثورة ؟ هل اعني

فادنها السياسيين ؟ هل اربد من هؤلاء القادة ان يقوموا هم باثارة المارك الفكرية والولوج في المجادلات الحامية حول معتقداتنا الدينية ، ومقاييسنا الاخلاقية ، وروابطنا العاطفية وعقدنا النفسية التي تكمن وراء تقاليدنا وعاداتنا ومواقفنا وممارساتنا ؟ من الواضح ان هذا يكون تكليفا لهم بما هو فوق الجهد وفوق المستطاع ، لانهم غير متخصصين فيه وليس من طبيعة وظيفتهم الحاكمة . انما الذين اعنيهم هم المفكرون والعلماء والكتّاب والادباء والفنانون . او فل بكلمة واحدة : المثقفون . المثقفون الذين قبلوا الثورة بطبيعتها الثورية ومضمونها الاشتراكي قبولاً صادقا عفويا ووجدانيا . هؤلاء هم المكلفون بالثورة الفكرية التي وصفها .

وعندنا من هؤلاء عدد ليس بانقليل . وهم بعلمهم وذكائهم واخلاصهم وامانهم فديرون على أحداث الثورة الفكرية المنشودة . لكنهم لن يؤديوا واجبهم هذا الا اذا تحقق لهم شرط اساسي : هو ضمان حرية التعبير (1) . ذلك ان صراخهم الفكري مع المجتمع المحافظ سيقودهم الى كثير من الموافقات التي يعارضون فيها هذا المجتمع في طائفة من اعز معتقداته واحبها الى قلبه وافواها يمكننا من صميم نفسيته . وهذا فمين بان يعرضهم لكثير من الشكوك والريب والنفور والكراهية والعداء والانهامات . سينهون في دينهم وفي اخلاقهم ، وسيتهمون في حبههم للوطن واخلاصهم للقومية العربية . فمن حتم ان ينتظروا من الدولة - دولة الثورة - ان تحميهم من عواقب هذه الاتهامات الوبيهة . لست اعني بهذا ان تدخل الدولة بالضرورة لتنصر جانبهم في الحوار الحاد المرير الذي سيقوم بينهم وبين خصوم التغيير انصار المحافظة على المعتقدات والقيم والتقاليد الموروثة ، بل اعني ان توفر الدولة لهم كل شروط التغيير الحر ، حتى يستطيعوا ان يستخدموا كل وسائل النشر في الاداء بارائهم والدفاع عنها دون تقييد او كبت ، ودون ان يصيبهم سوء في انفسهم ولا ارزاقهم . فتحميهم الدولة من عواقب ذلك التوجس والكره والانهام ، ومما لا بد ان يحدث من الدس والايقاع ومحاولة تحريف السلطات ، ومن المطالبة الصارخة الفاضحة بالصادرة او المنع الاداري او الابعاد والافالة - او السجن ... وغير هذا من صنوف العقوبات .

اقول : من حق المثقفين ان يضموا لانفسهم حرية التعبير دون مقبة الانقام او العقاب . فهل يتوفر لهم هذا الضمان ؟ اما اذا رجعتنا الى الميثاق ، فاننا نجد فيه تفريرا ملحا مكررا لضرورة الحرية وحرية الكلمة وحرية النقد والنقد الذاتي . فهو يقرر ان الكلمة الحرة ضوء كشاف امام الديمقراطية الصحيحة السليمة . ان حرية الكلمة هي المقدمة الاولى للديمقراطية . وحرية الكلمة هي التعبير عن حرية الفكر في اي صورة من صورته . ويقرر ان النقد الذاتي من اهم الضمانات للحرية .

فهل هذا مجرد كلام يقال وشعارات جوفاء يقصد بها الخداع ؟ ان الذي يدرس النصوص التي وردت في الميثاق عن حرية التعبير ليقنتنع اقتناعا تاما بان من كتبوا الميثاق كانوا يؤمنون ايمانا صادقا حارا بما يقولون . والدليل الذي لا يخطيء هو فهمهم الصحيح العميق لاهمية حرية التعبير وضرورتها ، ولزومها الخاص في فترات الثورة والتغيير . فالميثاق يقول « ان فترات التغيير الكبرى بطبيعتها حافلة بالخطار التي هي جزء من طبيعة المرحلة . على ان التامين الاكبر ضد هذه الخطار كلها هو ممارسة الحرية » . ويقرر « ان ممارسة النقد والنقد الذاتي تمنح العمل الوطني دائما فرصة بصحيح اوضاعه وملازمته دائما مع الاهداف الكبيرة للعمل . ان اي محاولة لاختفاء الحقيقة او تجاهلها يدفع ثمنها في النهاية نضال الشعب وجهده للوصول الى التقدم . » ويؤكد « ان الافناع الحر هو القاعدة

(1) اريد ان اؤكد منذ البدء ان الحرية التي اطالب بها في هذه المقالة هي حرية التعبير الفكري ، لا حرية السلوك العملي . وبين حرية الفكر وحرية العمل فرق عظيم سأشرحه في الخاتمة .

على الثورة الفكرية . فينهم وبين تطبيق الميثاق والوصول الى اسماع  
القادة يقوم ذلك الحاجز الرهيب ، الحاجز الضخم الكثيف ، حاجز  
البيروقراطية ، تلك الماكينة الضخمة الهائلة الحجم والقوة ، تلك  
الماكينة الرسمية الروتينية الصماء غير الشخصية . وهي بطبيعتها  
عامل جمود وعقبة كاداء امام التطوير والتغيير .

حين اقول هذا عن البيروقراطية فاني لا انسى - كما ينسى  
كثيرون ميم يحملون عليها - انها ليست شرا محضا ، ولا انسى كذلك  
انها مهما يكن من شروها ضرورة لازمة لزوما لا محيد عنه  
لتسيير دفة الدولة الحديثة المقعدة وتنفيذ القوانين والخطط  
والمشروعات المتزايدة الكثرة والتعقيد . انما ينشأ خطرها الحقيقي  
حين يسمح بتأثيرها الذي يميل بطبيعتها الى الجمود ويعزف بطبيعتها  
عن التجديد والمرونة بأن يصيب الفكر الثوري بالتجميد والوقوف  
والشلل . القيادة مضطرة اضطرارا تدفعها اليه طبيعة الحكم الحديث  
الى الاعتماد على البيروقراطية لتنفيذ فوائنها وخطتها . لكن  
البيروقراطية بطبيعتها التي شرحتها تؤثر التحفظ والاحتباس وتأخذ  
نفسها بالحرفية والروتينية والتزمت . فهي بهذه الطبيعة معادية -  
او على الأقل خائفة حذرة متوجسة - تجاه الروح الثوري الدائم  
القلق والتجدد والرغبة في التغيير والسعي في نقل الثورة من مرحلة  
في الزحف الى مرحلة . هي تفضل ان نجس نفسها على تطبيق المرحلة  
الراهنة ، وهي بكتلتها الاخطبوطية الهائلة ذات الالف ذراع نمد  
قبضتها الى كل مجال من مجالات النشاط في الدولة محاولة ان نوفه  
ونجمده وتخلفه . فالفكر الثوري المستمر التجدد هو عدوها اللدود .

لست في كلامي هذا اتهم البيروقراطية بفساد النية او  
التخريب العاصد للثورة ، فانا افترض بيروقراطية تامة النزاهة  
والاخلاص صادفة النية والايمن بضرورة الطريق الثوري . ولانا  
ادخل في حسابي ما تكنظ به بيروقراطيتنا المصرية من مساوئ ومفاسد  
استبقتها من العهد البائد ، بل افترض بيروقراطية تامة الكفاءة  
والصلاح . فاقول انها برغم هذا كله تمثل خطرا دائما على الثورة،  
ونف بطبيعتها حاجزا دون الانطلاق الفكري . لذلك كان من حق  
المثقفين ان يخشوها ويحذروا منها . فما بالك اذا ادخلنا الان في  
حسابنا تينك الحقيقيين ، فلملنا ان بيروقراطيتنا المصرية كانت  
تحتوي على عناصر لعادي الثورة معادة فعلية ، وانها كانت تزخر  
بعدد كبير من مساوئ العهد البائد ومفاسده ؟

تكشفت بعض جوانب هذا النقص قبل حرب الايام الستة ، لكنها  
لم تنكشف تمام الانكشاف الا بعد هزيمتنا في تلك الحرب ، وما  
اعقبها من موجة فوية من النقد الذاتي ازالنا الغطاء عن كثير  
من النقص والاطع التي وقعت فيها السلطات التنفيذية . فقد  
حدث غير قليل من الاضطهاد والسجن والتعذيب لعدد من احرار  
الفكر الذين ثبت فيما بعد اخلاصهم الثوري ، كما ان مأساة  
المناضل اليناثر صلاح حسين ، شهيد كمنيش - التي حدثت في سنة  
١٩٦٧ قبيل حرب الايام الستة - كانت اول اشارة الى ما دخل اجهزة  
الادارة والشرطة والمخابرات من تقصير خطير . فقد اهملت تلك  
الاجهزة شكاواه المتكررة من تعقب القوى الاقطاعية له بالاضطهاد  
والايداء ، وهي لم تهمل شكاواه فحسب ، بل صبت عليه جام غضبها  
واتهامها ، حتى حدث اغتياله على ايدي قوى الاقطاع المجرمة ، وهننا  
فقط انكشفت المأساة على انها .

وكلنا يعلم ما حدث في جهاز المخابرات بعد الهزيمة من امور  
افزع ، بلغت حد الانحراف الخطير ، بل تبادت حتى وصلت الى نديب  
مؤامرة لاغتيال القيادة نفسها ، فالقسي القبض على رئيس ذلك  
الجهاز ، وبدايات عملية تطهير شاملة كشفت عن مظالم اخرى متعددة  
كانت قد اشاعت الإرهاب . ولا حاجة بنا الى الاطالة في هذا  
الموضوع ، فاکثر القراء لا شك يذكرونه ، فنكتفي بالعودة الى الاستشهاد

- التنمة على الصفحة - ٦٧

الصلبة للايمان ، والايمن بغير حرية هو التعصب والتعصب هو  
الحاجز الذي يصد كل فكر جديد ويترك اصحابه بمنأى عن التطور  
المتلاحق الذي تدفعه جهود البشر في كل مكان .) ويلج في التقرير  
( ان حرية النقد البناء والنقد الذاتي الشجاع ضمانات ضرورية لسلامة  
البناء الوطني ، لكن ضرورتها اوجب في فترات التغيير المتلاحق  
خلال العمل الثوري . ان ممارسة الحرية على هذا النحو ليست  
لازمة فقط لحماية العمل الوطني ، ولكنها لازمة كذلك لتوسيع  
قاعدته وتوفير الضمان للذين يتصدون له . فممارسة الحرية على هذا  
النحو سوف تكون الطريق الفعال لتجديد عناصر كثيرة قد تتردد قبل  
المشاركة في العمل الوطني ، والحرية هي الوسيلة الوحيدة للقضاء  
على سلبيتها وتجنيدتها اختياريًا لاهداف النضال .)

وليس هذا هو كل ما يقوله الميثاق في تقرير حرية التعبير وشرح  
لزومها . فانه ينتقل الى كلام اكثر صراحة حين يشرح طريق الثورة فيما  
يسميه ( التغيير الجذري الشامل ) ، فيحدد تحديدا صريحا دور الفكر  
الثوري في هذا التغيير ، اذ يتحدث بجرأة عن ( الفكر الاجتماعي  
الذي يرسم الطريق الى صنع المجتمع الجديد وما يمكن لهذا الفكر  
ان يطوره من قيم اخلاقية جديدة ) . ويتحدث بنفس الصراحة والجرأة  
عن حاجة المجتمع الجديد الى ( علاقات اجتماعية جديدة تقوم عليها  
قيم اخلاقية جديدة وتعبير عن ثقافة وطنية جديدة ) . وهو يكرر  
نفس العقيدة في مواضع متعددة منه . تأمل بنوع خاص في حديثه  
المكرر عن ( قيم اخلاقية جديدة ) . واضف الى هذا حديثه الذي  
لا يقل صراحة ولا جرأة عن الدين وكيف حرفت الرجعية رسالته  
واتخذته ستارا لطماعها وراحت تتلمس فيه ما يتعارض مع روحه  
ذاتها لكي توقف تيار التقدم . تذكر ان الميثاق غير راض عن قيمنا  
الاخلاقية السائدة ، وغير راض عن التفسير الشائع للدين والاستخدام  
الساكن له .

هذا ما قرره الميثاق والحق في تقريره . فلماذا تخلف مثقفونا عن  
احداث التطوير الفكري والاخلاقي والديني الذي يدعو الميثاق اليه؟  
ولماذا ترددوا ولا يزالون يترددون حتى الان عن القيام بواجبهم ولا  
يجتهدون له انفسهم مختارين ويلتزمون السلبية التي حذر منها الميثاق؟  
هذا موضوع تناوله في مقالات ثلاث نشرها لي جريدة ( الاهرام )  
في ٢ و ٣ و ٤ نوفمبر سنة ١٩٦٤ ، ناقشت فيها تخلف الثورة الفكرية  
عن الثورة السياسية والاقتصادية ، وانتهت فيها الى ان العيب  
في المثقفين انفسهم ، وان سببه الوحيد هو خوفهم وقله شجاعتهم في  
مواجهة المجتمع المحافظ ، فهم يخشون سطوته خشية كبيرة . ومن  
هننا اتهمهم بالتخلف عن ركب الثورة ورميتهم بالقعود والتخاذل ،  
ودعوتهم الى مزيد من الشجاعة حتى يحققوا في مجالهم الفكري نظير  
ما تؤديه القيادة في المجالات العملية من تغيير جذري تام الجرأة .  
وحذرهم من عواقب تخلفهم ذلك فانه يضر بالثورة اضرارا كبيرا ، لانه  
لا يحدث من تطوير المفاهيم والقيم ما يحتمه التغيير الجذري القوي  
الذي يدخله فادتنا على اوضاع المجتمع ، الامر الذي يعرض مجتمعا  
الى خطر ذريع من التناقض والتفسيخ ، اذ تتعارض معاملاته التي تضطره  
اليها قوانين الثورة مع موقفه النفساني والاخلاقي الدفين الذي لا  
يزال يحتفظ به من رواسب الماضي .

ذلك ما قلته في تلك المقالات . لكن المناقشات الشخصية التي  
تلت نشرها والتي دارت بيني وبين عدد من المثقفين اطلعتني على  
العامل الحقيقي الذي يخشونه اشد خشية . ليس هذا العامل هو  
خوفهم من قيادة ثورتنا ، فهم وانقشون تمام الوثوق من قادة الثورة  
مطمئنون كل الاطمئنان الى ارتباطهم بالميثاق وصدق عزمهم على  
الاهتداء بهديه والاخلاص في تطبيقه . اما الذي يخشونه فشيء آخر،  
هو البيروقراطية .

البيروقراطية : هذا الخطر الكبير الذي كان رابضا امام  
حرية الفكر ، هو الذي كان يقعد بهم عما دعوت اليه من الاقدام

## والان . . الى الثورة الفكرية

تتمة المنشور على الصفحة ٧ -

ورد هذا النص في مقالة بعنوان « المعنى الحقيقي لكل ما تكشف بعد النكسة » في جريدة « الاهرام » ٨ نوفمبر ١٩٦٨ . وفيها يروي الاستاذ هيكل ما دار بينه وبين الرئيس من حديث « في يوم من الايام العصيبة التي اعقبت النكسة ، فيقول :

« في ذلك اليوم كان الرئيس جمال عبدالناصر يتحدث عما جرى، وعما تكشف بعدما جرى ، وكان سؤالي له بعد ذلك هو : ( ما هي الضمانات التي يمكن ان تحول دون تكرار هذا كله ؟ ) وقال الرئيس جمال عبد الناصر : ( لا بد ان نوفر اكبر قدر متاح من الضمانات ) . ثم اضاف الرئيس جمال عبدالناصر بعد وقفة قصيرة جال فيها بفكره - فيما بدا لي - في بعض ما حدث وما تكشف : ( الان يبدو واضحا امامنا ان كثيرين لم يتكلموا حين كان واجبههم يقضي عليهم بان يتكلموا ، ومن هنا فلسوف يبقى اهم الضمانات في نظري ان يكون في هذا الوطن دائما ذلك الفرد المؤمن الذي يقول كل ما يريد قوله حتى اذا اعطى رأسه ثمنا لايمانه . )

هذا ما نقله الاستاذ هيكل من كلام الرئيس . والان نطفي تعقيبه على هذا الكلام : « وبالحق فانه ليس هناك وقت تشتد فيه حاجتنا الى ان نتكلم كما تشتد الان . وان نتكلم بالتصریح اولى من التلميح وان نشترك في مناقشات واسعة وان ندعو الى مناقشات اوسع بل وان نحرض عليها تحريضا اذا لزم الامر ! فضلا عن ذلك فلست اعتقد ان رؤوسنا معرضة ، بل ان رؤوسنا سوف تكون معرضة اذا لم نتكلم ، لان كل ما حدث سوف يتكرر ، كما ان الوطن ليس ملكا لبعض من فيه دون البعض الاخر . واذن نتكلم . . .

\*\*\*

وليس كلامي الذي فلته آنفا ، والذي سأقوله فيما يلي، الا تلبية لهذا النداء ، واستجابة لهذا التحريض !

سند اخير يستطيع مثقفونا ان يجدوا فيه تمام التشجيع، وهو الدرس الذي يعلمونه جيدا من تاريخ حرية الفكر ، وهذا هو : انهم مهما يلافوا من اذى ، ومهما يدفعوا من بضحيات ، فانهم في النهاية هم المنتصرون . لان الكلمة الحرة ، اذا وجدت لها من يجرؤ على الجهر بها ، ومن يصبر على جهاده في سبيلها وبصاير، تنتقل على كل محاولات الكبت والمصادرة .

ها هم اولاد فدائونا البواسل يحملون بناذقهم ، ويدفعون فسي تحرير الارض المنتصبة ضربة الدم ، ويقبلون طائعين منطوعين مخاطر الجرح والتشويه والموت ، بشجاعة باسمة وتضحية راضية ، فسي جهادهم للعدو الخارجي . فليتم مثقفونا بالجانب الاخر من الجهاد هذا الجانب الذي لا غنى عنه ولا مفر منه ان اردنا الفوز في معركة التحرير، وهو جهاد العدو الداخلي ، الرجعية والجمود والبيروقراطية . وليحملوا افلامهم كما يحمل فدائونا بناذقهم ، بنفس روح الشجاعة والتضحية . حينذاك يكونون قد ادوا واجبههم في المعركة الدائرة حول مصير العروبة ، فهي كما شرحنا مواجهة حضارية شاملة ، ان لم يقم فيها المثقفون بدورهم في نقل امتنا العربية من مرحلة التخلف والرجعية الى مرحلة التحضر والتقدمية ، فلن يكتب لنا فيها الانتصار ، لاننا - بكل بساطة ، وباقصى مصارحة - لن نكون الفئة التي تستحق الانتصار .

### الدين وحرية الفكر

اذا اردنا ان نلحق باسرائيل - دعك من ان نتفوق عليها - فلا بد لنا من احداث تغيير شامل في كياننا القومي يعيد بناء كافة جوانبه الحضارية . . .

وهذا التغيير الشامل لن يتحقق بمجرد التغيير العملي عن طريق سن القوانين وتطبيقها ، انما يتحقق اذا استطعنا ادخال التغيير العقلي والقلبي على مختلف المفاهيم والقيم التي يتشبث بها اغلب افراد مجتمعنا العربي . . .

بتلك المقالات الكثيرة المتتابعة التي كتبها بعد الهزيمة الاستاذ محمد حسنين هيكل ، ففصل الحديث في الاخطاء التي وقعت فيها « مصر الدولة » ، وضرب الامثلة المتعددة على تعارضها مع « مصر الثورة » وحلل ما اصاب الاجهزة البيروقراطية من النقص والتقصير، ومن الانحراف البليغ، وما لجأت اليه من الازهاق ، و اشار الى ما وقعت فيه الصحافة من محنة الكبت والتضييق ، وكان المفزى الاكبر الذي وصل اليه من كل تحليله ، هو ان الخطأ العظيم الذي ارتكبته الاجهزة البيروقراطية هو تضييقها على حرية الفكر ، حتى اشاعت في احرار الفكر الخوف وحملتهم على الصمت والسلبية . وكان اهم درس خرج به من تشريحه لاسباب الهزيمة ، هو وجوب السماح بالحرية التامة لكل فرد حتى يقول كل ما يريد ، ويقول بكل صراحة ، « بصوت مسموع تاما لا هو غمغمة ولا هو التواء » .

\*\*\*

في ضوء هذا كله لا بد لنا من ان نسلم بوجاهة العذر الذي قدمه اولئك المثقفون اعتذارا عن لجونهم الى الصمت وإيثارهم للسلبية ولكن . . . هل يخلبهم هذا تمام الاخلاء من نصيبهم من المسؤولية ؟ هل يبرر ما اصابهم من الضعف والانحلال ؟ انهم من دراستهم لتاريخ حرية الفكر خبر من يعلمون ان الحرية تؤخذ ولا تعطى ، وانهم غير جديرين بها الا اذا سعوا اليها وجاهدوا في سبيلها وتحملوا في هذا السبيل كل ما قد يفرض عليهم من التضحيات .

والان . . . ماذا بعد الهزيمة ؟ لقد حاولنا حتى الان ان نبرهن على ان النقص الاساسي الذي اتسمت به ثورتنا هو تخلف الثورة الفكرية عن الثورة العملية ، وفي تحديدنا للمسؤولية لم ننف القيادة من نصيبها منها ، كما وصفنا بما نعتقد ان فيه الكفاية ما تحمله اجهزة الدولة من وزر الهزيمة نتيجة لما تطرق اليها من الخطأ والتقصير ومن الانحراف والفساد ومن كبت حرية الفكر واضطهاد المفكرين الاحرار . لكننا بعد هذا كله لا بد ان نعود فلح على مسؤولية المثقفين التي لا يستطيعون ان يتخلصوا منها برغم كل ما فرناه وما سلمنا به . وانما نلح على هذا لاعتقادنا انهم في المحل الاول هم النوط بهم تصحيح الاخطاء وكشف الانحرافات وتقويم العوج وعلان المظالم ، ما حدث منها وما سيحدث . هم وحدهم الذين يستطيعون ان يقوموا بما نحتاج اليه من عملية تطهير شاملة عميقة فاسية تضرب السى جذور عللنا ونقاصنا ومخازينا ، ما حدث منها وما سيحدث . هم لا غيرهم الذين تقع عليهم مسؤولية الكشف عن اخطاء البيروقراطية ومقاومة طغيانها وصد اعتداءاتها على حرية الكلمة ، ما حدث منها وما سيحدث . وانما نقول ونكرر « ما حدث منها وما سيحدث » لاننا لا نستطيع ان نضمن لهم ان الاخطاء لن تتكرر، فقد شرحنا طبيعة البيروقراطية التي لا فائدة من التباكي عليها وانما هي تحتاج الى المقاومة المتصلة والتصحيح المستمر . ومعنى هذا انهم سيحتاجون دائما الى التحلي بالشجاعة والمخاطرة والاستعداد للضحية . ولكن لديهم الميثاق فليتخذوه سندا وليثبتوا به افوى التثبيت . ولديهم بالإضافة اليه عدد كبير من الخطب والبيانات والاحاديث والتصريحات التي ادلت بها القيادة في مختلف المناسبات فليتخذوها ايضا سندهم وحجتهم في لزوم الكلمة الحرة والنقد الجريء . فان اردوا حجة واحدة قد تكون بها كفاية الاحتجاج فلا فاقم اليهم النص التالي مما قاله رئيس جمهوريتنا نفسه، وما قاله الاستاذ محمد حسنين هيكل تعليقا عليه .

والذي يدخل التغيير المطلوب على عقول الناس وقلوبهم هو عملية نقد وتمحيص واسعة النطاق متعددة الجوانب يقوم بها مثقفوننا فيخضعون فيها كل مفاهيمنا المقبولة وقيمنا الشائعة لثورة فكرية جذرية تنفي عنها ما لم يعد ملائما للمجتمع الجديد الذي نريد بناءه وتحل محلها ما يحتاجه هذا المجتمع من مفاهيم وقيم جديدة ..

لكن مثقفينا لكي يقوموا بهذه الثورة الفكرية الشاملة الجذرية يحتاجون الى قدر عظيم من الشجاعة واستعداد التضحية حتى يقابلوا ما سيرميهم به المجتمع المحافظ من الاتهام وما سيثير عليهم من العداوات . ولكي نقدر حق التقدير مدى ما سيحتاجون اليه من شجاعة ومصابرة في عدد من اهم الاتهامات التي لا مناص من ان يجلبوها على انفسهم .

هم سيحلبون على انفسهم التهم في ثلاثة جوانب رئيسية : الجانب الديني ، والجانب الاخلاقي ، والجانب القومي ...

فهم في صراعهم المرير مع الافكار والمثل التي يصر مجتمعنا المحافظ على التمسك بها ، وفي تحليلهم الصريح المؤلم لما يخفل به هذا المجتمع من العلل والنقائص التي ورثها من فروع الانحلال - هذه العلل والنقائص التي يسميها الميثاق « الرواسب المتعفنة للنظام القديم » - لا بد ان يدخلوا في جدل قوي مع الخرافات والادهام التي تختلط بالعقائد الدينية الصحيحة وتتغلب عليها في اذهان الكثرة الغالبة من افراد المجتمع ، ومع التاويلات والتفسيرات القديمة لبعض مسائل الدين التي ربما كانت صالحة لبيئات واحوال ماضية لكنها لم تعد صالحة للمجتمع الحديث . وهنا لن يميز افراد المجتمع بسهولة بين ما هو خرافات تلبست بالدين ، وما هو من عقائده الصحيحة ، ولا بين ما هو من الاسس التي لا تقبل التغيير وما هو تاويل وتفسير يجوز ان يتغير ويجب ان يتغير . بل سيخيل اليهم ان اولئك المفكرين يعادون الدين نفسه ويحاولون ازالته ، ومن هنا تثار اتهامات الكفر والالحاد او الزيغ والهرطقة .

سيجتهد المفكرون بالطبع في ان يبينوا للناس انهم لا يحملون على الدين نفسه بل يحملون على تفسيره الخاطيء واستعماله الفاسد الذي يلتوي به عن رسالته السامية ويتخذة اداة للتعويق والجمود بدل ان يتخذة اداة للنهوض والتقدم . لكن لا بد ان نتذكر في هذا المجال صراع القوى الرجعية لاستبقاء تفسيرها الذي يناسبها ويكفل لها استبقاء مصالحها وامتيازاتها . وهذا هو السبب الاكبر في الظاهرة التي قلت سابقا ان علينا ان نواجهها ونعترف بها بامانة ، وهي ان اكثر الناس عندنا برغم كل ما قيل وكتب عن اشتراكية الدين الصحيح لا يقبلونها قبولاً عقلياً صادقاً وقلبياً عميقاً . فالقوى الرجعية لا تزال في شتى اركان العالم العربي تبت فيهم تفسيراً معيناً لنصوص مقدسة معينة نقالي في مدلولها وتفسيرها بما يلائم مصلحتها . وهو كما نعلم تفسير يبرر الفوارق بين الطبقات ويبرر الظلم والاثرة واستبقاء التفاوت السحيق والرضى بالشقاء والحرمان على وجه الارض وحبس الامل على العدل الذي سيتحقق في ملكوت السماء في الدار الآخرة .

ومن هذا يتجلى ان الناول الجزئي للمسائل المبعثرة لن يكفي لاقناع الناس بقبول الاشتراكية . فمثل هذا الناول تحفل به الكتب التي وضعت حول « اشتراكية الاسلام » ، بل يجب ان يجد مثقفوننا الشجاعة الكافية ليناقدوا المسألة الاساسية ، وهي طبيعة الدين نفسه ودوره في المجتمع وحاجتنا الى تغيير فهمنا الموروث لهذه الطبيعة وهذا الدور تغييراً اساسياً .

اضف الى هذا في المجال الديني ان المفكرين حين يدعون الناس الى نظرة اكثر علمية وموضوعية نحو حقائق الكون وطبيعة الانسان وضرورات الاجتماع البشري ، نظرة تسلم بدور المادة في صياغة هذه كلها ونكيفيةها ، سيتهمون بانهم تجردوا من النظرة الدينية الصحيحة

ولم يعدوا يؤمنون بالروح وصاروا يسخرن بالفيب . ذلك ان فهم الناس الغالب للروح والفيب يحتم عليهم الايمان بالخوارق التي تلمس نوايس الكون ، لا على يد الانبياء وحدهم بل على يد كل مؤمن يستطيع بايمانه الصرف ان يبطل سنن الوجود وقوانين المادة .

وانظر الان فيما سيتهم المفكرون به من الفساد الاخلاقي والهدم العائد للفضيلة ونشر الرذيلة حين يناولون بالنقد علاقتنا الاجتماعية التي كانت تصلح لمجتمع اقطاعي رأسمالي ولم تعد تصلح لمجتمع يريد اتخاذ النظام الاشتراكي . من طبيعة العلاقات بين المالك والاجير ، وبين المخدم والخدام ، وبين الاب واولاده ، وبين الزوج والزوجة ، وبين الرجل والمرأة . فمجتمعنا مستقر على علاقات معينة في كل من هذه النواحي ، وهو يعتقد مخلصاً ان من الاثم والفسوق محاولة تغييرها . كثرته الغالبة في اكثر اقطارنا العربية تعتقد مثلاً ان المرأة ادنى من الرجل مرتبة ، وبانها لم تخلق الا لخدمة الرجل وحمل اولاده ورعاية بيته ، وبانها بطبيعتها الانثوية نزعاً الى السقوط فلا يؤمن عليها من الاغراء الا بالكبت والتضييق ، وبان من فساد الاخلاق اذن ان تغالط الرجل الاجنبي عنها في ميادين النشاط الاجتماعي . هذه هي المعتقدات التي لا يزال اغلب افراد مجتمعنا يحتفظون بها في صميم انفسهم . ولا يفترنا عنها كثرة « مظاهر » تحرير المرأة التي نراها . فان هذه المظاهر لم تحدث الا برغم ما يريده هؤلاء الافراد فهم عليها ساخطون في فرارة انفسهم . اصف الى هذا كله ان عدداً غير قليل منهم لا يزال على اعط الدركات في نظره الى المرأة ، انما لا يرى فيها سوى اداة لثة جنسية للرجل لا اكثر ولا اقل ، ومنهم من يصرح برأيه هذا في اقواله وكتابات .

ومجتمعنا هذا ، مجتمعنا هذا الذي يتشدد كل ذلك التشدد بالفضيلة والاخلاق ، قد تراضى على قدر عظيم من النفاق ، فهو يسكت عن عدد من الرذائل الشنعاء التي تنتشر وراء النفاق المنتشر وتضرب في جنبات بلداننا العربية فتجعلها مضرب الامثال في العالم كله في حضيض الدعارة والبهيمية والشذوذ . لذلك سيؤله اشد الالم ان يقوم من مفكره من يكشفون عنه قناع النفاق ويصرون على تشريح آثامه ، وسيرفض ان يسلم بانهم محقون في تقديمه ، وسيصب عليهم جام غضبه منهما اياهم بانهم هم الفاسدون الباغون للفساد .

من خلال هذا كله سنثور تهمة اخرى خطيرة ، هي اتهام المفكرين الاحرار في قوميتهم ووطنيتهم . هؤلاء الذين يحملون هذه الحملة على ارسخ معتقداتنا واعز قيمنا ، والذين يكشفون هذا الكشف الصريح المؤلم عن متعدد جوانب نقصنا واثمنا ، فيسببون لافراد مجتمعنا كل هذا الابلام للعواطف والجرح للاحاساسيات والايذاء للكرامة ، سينهمون بنقص الروح الوطنية ومعاداة القومية وجرح الكرامة العربية والرغبة العارمة في فضحنا وتحقيرنا امام الاعداء .

وستزداد هذه التهمة حدة حين يأتي مفكروننا الى اعادة النظرة في تاريخنا وتراثنا العربي الاسلامي ، ليستكشفوا حقائقه وينفوا اباطيله . فاغلب افراد مجتمعنا يتخذون نظرة معينة من هذا التاريخ والتراث ، نظرة تبالغ في التقديس الابله ولا ترى الا فضائل ومحاسن وصفحات مشرقة بيضاء وامجاداً غراء محجلة . فماذا يكون حين يرى بعض مفكرينا ان واجب الامانة العلمية يظفرهم الى الكشف عن جوانب النقص والعيوب والجرائم والمخازي . وحين يرون ان نهضتنا الحديثة لا يمكن ان تقام على تصوير زائف لماضيها وتقديس مفرط لتراثنا . وحين يقررون ان برءنا الكامل من رواسب الماضي المتعفنة لن يتحقق الا بهذا الكشف الامين والتقويم السليم . سيرفض افراد مجتمعنا هذه الحجج ويرون في هذا العمل مرة اخرى انتقاصاً من الكرامة القومية وتسميتنا للاعداء . فتكرر نفس الاتهامات الدينية والاخلاقية والوطنية .

\*\*\*

كل هذا خليق بان يفهمنا جسامة العبء الملقى على مفكرينا ان

التي تناول حقا مسائل الدين اصلية وفرعية لربما هان الخطب . لكنهم اعتقدوا ان الدين يسمح لهم بالتدخل في العلم والطب ، والفلك والجغرافية ، والطبيعة والاحياء ، وسائر المعارف العلمية. يقررون اي آرائها يطابق الدين وابها يخالفه . وتاريخ الاديان يفيض بالماسي التي نجمت من هذا التدخل باسم الدين . فحاربوا القول بكروية الارض . وحاربوا القول بانها ليست مركز الكون وبانها هي التي تدور حول الشمس ، وحاربوا التفسير الفلكي لحركة الاجرام السماوية وللكسوف والخسوف . وحاربوا نظرية التطور وانكروا حقائق التطور التي تجلوها علوم الاحياء . وحاربوا علم النفس التحليلي .

وحاربوا الطب الحديث والتخدير قبل العمليات الجراحية وعلاج الامراض التناسلية ، ولا يزال الكثيرون منهم يحاربون تحديد النسل، وخالصة القول انه لا يكاد يوجد رأي علمي جديد الا وقامت عليه قائمة رجال الدين بحجة انه يخالف الدين . والذي يعنونه انه يخالف فهمهم الخاص للكون ، الذي ينونه على تفسيرهم الحرفي الضيق المتجمد لنصوص معينة في الكتب المقدسة . وهم يرفضون ان يغيروا فهمهم هذا ويستمررون في الرفض ما وسعهم محاربي الفكر الجديد افسى محاربة يستطيعونها ، مرتكبين اشنع الجرائم في تكميم الافواه وحرق الكتب وتحريم نشرها وفي الطرد والاقالة والسجن والنفي وفي التعذيب الاليم والحرق والشنق والتصلب . ولا يكفون عن جرائمهم الا بعد جهاد مرير واستشهاد كبير من احرار الفكر .

كذلك في سائر ميادين الفكر غير الديني ، تكاد لا تجد مذهباً جديداً في فلسفة او اجتماع او اقتصاد او فن او ادب الا وقد حاربه هؤلاء باسم الدين وادعوا مخالفته لاصول عقائده . لسنا نكر في هذا كله انه كان من بينهم بعض المحررين والمجددين وانصار التجديد، لكننا نتحدث عن اغلبهم في سجل التاريخ المحفوظ ، وهم الذين كونوا الرأي الرسمي الذي فرضته السلطات الدينية بمؤسساتها الرسمية . على ان خطبهم يزداد حين ندرک انهم في هذا العداء للفكر الجديد لم يكونوا مدفوعين بمحض عقيدتهم الزهية مصيبة كانت او خاطئة ، بل كانوا الى حد كبير للاسف الشديد مدفوعين بمصالحهم الخاصة المرتبطة باستبقاء النظام الكائن ومقاومة التغيير المنشود . ومن هنا تجد ان جميع الحكومات الرجعية التي لا تزال تسيطر على اقطار كثيرة في الشرق والغرب انما تستند اساسا على سلطة الرجعيين من رجال الدين ، هؤلاء الذين لا يزالون يعقدون مع قوى الاقطاع والرأسمالية والتخلف حلفاً ائيماً يتقاسم فيه الفريقتان ثمرات الظلم والانسرة والاستغلال وتفاوت الطبقات وخلق كل حركة هادفة الى تنوير عقول الناس واصلاح احوالهم وتغيير اوضاعهم الى ما هو اخلق بالعدل والساواة والحرية والكرامة والتشور والتقدم .

من هذا كله لا نجد سوى مفزى واحد نستطيع ان نخرج به ! وهو اننا يجب علينا ان نقاوم كل محاولة لكبت الرأي الجديد باسم الدين ولا بد ان نسمح لهاذ الرأي بالنشر والاذاعة وبحق النقاش والجدل مهما

## عالم الفكر

مجلة المثقفين ...  
المجلة التي ينتظرها كل اديب ومفكر وباحث ...  
قريباً بين ايديكم ..  
تصدر عن وزارة الارشاد والانباء في الكويت  
مرة كل ثلاثة اشهر .

ارادوا ان يقوموا بالثورة الفكرية الصحيحة ، ومدى حاجتهم الى الشجاعة والنضحية . لكن الذي اريد ان اركز عليه الان هو انهم لن ينجحوا في القيام بهذا العبء اذا اقتصروا - كما يفعلون الان - على مسائل جزئية مبثرة في معتقداتنا الدينية وقيمنا حتى يدخلوا عليها التغيير الذي لا مفر منه . ولا ضرب المثل هنا بالمشكلة الاولى، مشكلة الدين ...

معظم الناس في بلادنا يعتقدون ان الدين قد جاء باجوبة محددة وحلول فاطمة لمتعدد مسائلنا ومشكلاتنا البشرية ، وان هذه الاجوبة والحلول ليست مفتوحة اذن للتعديل والتغيير بل هي تقدم نظاماً فكرياً وعملياً كاملاً نهائياً ليس علينا الا ان نسمعه ونطبقه . لهذا لن يحقق مفكرنا نجاحاً حقيقياً الا اذا اقتنصوا الناس بحقيقتين كبيرتين: ان المسائل التي اعطى الدين عليها اجوبة محددة لا تقبل الخلاف هي مسائل قليلة جداً ، وان الدين لا يحتوي على نظام كامل نهائي ندبر به شؤوننا الحيوية ونحل به مشكلاتنا البشرية على ظهر هذه الارض .

اما الحقيقة الاولى فيكفيها بصدها في مجالنا المحدود الراهن ان نشير الى انه في مجال الفكر الديني نفسه ، المقتصر على مسائل الدين الخالصة ، لا توجد سوى مسائل قليلة جداً نستطيع ان نعدها اصولاً ثابتة يسلم بها الجميع ، واغلب مسائل الدين يختلف في تقريرها وفي الاجابة عليها اهل الملة . فبعضهم يعد من الاصول ما لا يصده آخرون اصولاً ، وهذه الاصول الثابتة القليلة نفسها ...

هي لا مجال للخلاف فيها ما دامت تقرر تقريراً بسيطاً عاماً ، لكن ما ان نبدأ في التوسع في فهمها وشرحها حتى تتمدد وجهات النظر فيها هي ايضاً . الله واحد احد ليس له شريك ولا ولد ... هذا مثلاً اصل من اصول الاسلام ، ومن يخالف هذا يخالف الاسلام . لكن ... ما هذا الاله الواحد ؟ ما صفاته ؟ وما العلاقة بين الموصوف والصفات ؟

وما مدى قدرته وهل لها حدود ؟ هل يستطيع فعل الشر مثلاً او قدرته محددة بفعل الخير ؟ وما علاقته بالخلقين ؟ هل يجبرهم على اعمالهم او يدع لهم حرية الاختيار ؟ وما كنه هذه الحرية ومداهما ؟ وكيف في كل من الموقفين المتعارضين نفس الآيات التي يبدو انها تخالفه ؟ مسائل تعددت فيها الآراء بين المتكلمين القدامى انفسهم ، واشتد الخلاف بين اهل السنة والمعتزلة ، وفيما بين اهل السنة انفسهم، الامر الذي يشهد به ذلك التعدد العظيم للفرق الاسلامية، حتى لم يعد سبيل يجنبهم ان يكفر بعضهم بعضاً سوى ان تترك الحرية الكاملة لكل منهم في التعبير عن رأيه والتدليل على صحته . وبهذا وحده يمكن تجنب ذلك الخطر المائل خطر التعصب الديني الضار البقيض .

لكن ذلك الخطر لم يقتصر على امثال تلك المسائل التي تتعلق حقا باصول الدين ، بل تجاوزها فشمم مسائل اخرى كان ينبغي ان يدرك الجميع انها لا تمس الاصول وانما تتعلق بالفروع التي يجوز فيها اختلاف الرأي . وسبب هذا ان اصحاب كسل رأي تقليدي يميلون الى اعتباره من الاصول الثابتة التي لا يجوز فيها خلاف ولا يحتمل نقاش . ويصعب عليهم ان يروا انه مما يجوز فيه التغيير دون مساس بجوهر الدين . ولقد حدث هذا كثيراً منذ بدأ الكلاميون والاصوليون وغيرهم من المفكرين الدينيين يتدارسون ويناقشون في المسائل الدينية الخالصة ، من المدارس والمذاهب القديمة ، الى ابن تيمية ومحمد عبده وعلي عبد الرازق ، وكثيرين غيرهم ممن ليست لهم شهرة هؤلاء . كانت آراؤهم تتهم في كل حالة بانها خارجة على « جوهر » الدين ماسة باصوله الثابتة المقررة . وكان اصحابها يتهمون بالزيف والهرطقة بل بالكفر والالحاد .

هذا في مجال الفكر الديني نفسه . سواء اكان متعلقاً باصوله ام بفروعه . فلننظر الان في حقيقة اخرى كبيرة الخطر ، وهي ميل رجال الدين او علمائه الى بسط سلطانهم على ما هو خارج عن شأن الدين ، اصلاً او فرماً ، ولا علاقة له به . فلو ان هؤلاء اقتصروا في تقييدهم لحرية الفكر على مراقبة الآراء

يبد لنا مخالفنا لعقيدتنا الدينية . فمن يدري لعل معتقداتنا التي نظنهما من الدين الصحيح هي التي تحتاج الى تغيير ، ولن يحق الحق ويزهق الباطل الا الدرس والنقاش والجدل . وكيف يتأتى لنا هذا اذا كنا سنكب كل رأي جديد بحجة انه مخالف للدين ؟

\*\*\*

لكن دعنا ننقل الان الى الحقيقة الثانية فنسال : هل احتوى دين على نظام كامل نهائي يحل كل مشكلاتنا الحيوية ويضع تشريعا يمكن تطبيقه على كل مسألة نشأت وستنشأ من شؤون معاشنا الدنيوي؟ هذا ما لا يزال يدعيه كثيرون من الخطباء والكتاب في مختلف افطارنا العربية . والذي يعنونه في حقيقة الامر انهم هم بصفتهم متخصصين في تفسير الدين يجب ان ينفردوا بسلطة الحكم ، ولو سلمنا لهم بهذا لاتحنا لهم فرصة الحكم الديني المتعصب بكل فظائمه وجرائمه التي سجلها التاريخ . لكن هل يجبرنا الاسلام على ان نسلم لهم بدعواهم ؟

من هؤلاء من يدعي ان القرآن قد احتوى كل التشريعات اللازمة لكل حالة ومشكلة . ومنهم من يحتاط فيصيف السنة اي اقوال الرسول ، ومنهم من يضيف آثار الخلفاء الراشدين واقوال الصحابة والتابعين ومذاهب الفقهاء المتقدمين . لكنهم على اي حال مطمئنون الى ان هذه المصادر الدينية قد سبقت فتضمنت حل كل مشكلة سياسية واقتصادية واجتماعية وشخصية ظهرت ويمكن ان تظهر الى يوم القيامة . وانه ليس علينا الا ان نبش في مؤلفات القدامى لنجد جلاء لكل مسألة تقوم امامنا .

في مواجهة هؤلاء لا بد ان نلح في تأكيد هذه الحقيقة : ان الاسلام بكل مصادره لم يحاول قط ان يدعي انه قد وضع للناس نظاما دنيويا كاملا لا يقلل التغيير . فالتغيير وضروراته اصل من اصول التشريع الاسلامي نفسه . ولولا هو لما وضع الرأي بركنيه القياس والاجماع كمصدرين اساسيين للتشريع الاسلامي منذ عهد مبكر . فمفزي

هذا المبدأ هو الاعتراف بنشوء حالات ليس فيها تشريع في كتاب ولا سنة ، بعضها يشبه حالات نشأت من قبل فمن الممكن ان نلحها بالقياس ، وبعضها لا يشبه شيئا ظهر من قبل فيكون حله باجتهاد اهل الرأي وما يتفقون عليه من احكام جديدة يعتقدون انها صالحة نافعة . وقراءة يسيرة لتاريخ التشريع الاسلامي تجلو ما كان عليه في عصور حيويته من تغير مستمر ونمو مطرد . وانفتاح التشريع الاسلامي للنمو والتغير المتصل هو الحقيقة الكبرى التي ادركها عظام رجاله ابتداء من الخليفة عمر بن الخطاب . هؤلاء هم الذين فهموا المفزى الصحيح الكامل لتلك الكلمة الرائعة النزيهة التي قالها الرسول عليه السلام في الخبر المأثور عن ابر النخل . حين نهى الناس عن ابر النخل فاطاعوه فلم يشر ، فلما راجعوه اعترف بخطاه اعترافا سريعا تام النزاهة عظيم الشجاعة الادبية ، فقال قوله المشهورة : انتم اعظم بأمور دنياكم . . .

فاذا كان الرسول الكريم في امانته النامة ونزاهته التي لا تشوبها شائبة قد اقر لاصحابه بانهم اعلم منه بأمور دنياهم ، مع ما كانت عليه احوالهم من البساطة والسذاجة ومعارفهم من القلة والتحدية ، فماذا ترى في حياتنا المعاصرة في النصف الثاني من القرن العشرين ، بكل تعقيداتها ومعضلاتها المادية والفكرية ، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية ؟

فاذا كنا اعلم بأمور دنيانا من الرسول نفسه ، افلا نكون اعلم ايضا من الصحابة والتابعين والفقهاء والعلماء الذين انقضى على آرائهم وحلولهم واجاباتهم ما يزيد على الف من السنين تطورت فيها الانسانية تطورا عظيما وتغيرت تغيرا بعيدا ؟ .

بلى ، نحن اعلم بأمور دنيانا . صدق الرسوم العظيم وكذب كل مدع جامد العقل يريد ان يقيدنا في هذه الامور بحدود الاقدمين .

البقية في العدد القادم

محمد النويهي

القاهرة

## أصول الفكر الماركسي

تأليف اوغست كودنو

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

رحلة من داخل الفكر الماركسي وتأصيل للحركة الماركسية في الفكر الالماني قبل ماركس بدءا من الفلسفة العقلانية الى الحركة الرومانتية ثم وقفة كبيرة عند هيغل من حيث هو مصدر غنى للفكر الماركسي ثم وقفة كبيرة أخرى عند اليسار الهيغلي بصفة عامة ولودفيغ فيورباخ بصفة خاصة . . . وهنسا يهتم المؤلف بابرار فكرة الاغتراب عند كل من هيغل ثم موسى هس وفيورباخ ، وهي تلك الفكرة التي اثرت على ماركس الشاب وبحث في المكونات الفلسفية وتطوره الفكري حتى البيان الشيوعي بعد ان تكون رحلة الاصول قد استكملت . . .

والمؤلف واحد من كبار المفكرين الماديين واستاذ للتاريخ الثقافي بجامعة همبولدت ببرلين . . . وهو من اوائل من اهتموا بمشكلة الغربية عند ماركس وركز على مخطوطة ماركس الاقتصادية والفلسفية التي نشرت في الثلث الثاني من القرن العشرين وعدلت النظر الى كارل ماركس . . .

صدر حديثا - عن دار « الاداب »

الثمن ٣٠٠ ق . ل